

هذا هو الريف :

## بعثة طيبة ... !<sup>(\*)</sup>

للأستاذ سيد قطب

—•••••—

« إلى المترفين في المدينة أولئك الذين يتشدقون

بإصلاح الريف وهم لا يدرون شيئاً عن هذا الريف »

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً ... كانوا قد تلقوا  
الدرسين الأول والثاني في مدرسة القرية ، ثم انطلقوا ... انطلقوا  
من الفصول كالمصافير الحليسة حينما تنطلق من القفص بعد حبس  
طويل ، انطلقوا يقفزون ويركضون ، ويزعقون ويتصاحجون ،  
لغير ما قصد ولا غاية إلا تأكيد شعورهم بأنهم طلقاء بعد الحبس  
الطويل !

ثم لكي يفرغوا لنقل ما تحمله جيوبهم من بعض الأطعمة  
إلى بطونهم ، فلقد حملوه نحو ساعتين ، ولكن « النظام » في  
الفصل لم يكن يسمح لهم بعملية تفريغ الجيوب !  
ثم لكي ينصرف أبناء الأغنياء منهم إلى « عشة عم خليل »  
بائع القصب والبلح ، فيشتروا منها بجليم !

ولم تكن هذه كل قيمة « الفسحة » ، فلقد كان لهؤلاء  
الأطفال مآرب في تلك الفسحة القصيرة — ربع الساعة —  
لقد كانت المدرسة في طرف القرية على حدود الحقول الواسعة .  
وإذا كانت وظيفة الحقل أن ينبت للناس والماشية الحبّ والأبّ ،  
فلقد كانت له وظيفة أخرى عند تلاميذ المدرسة ، وعند غيرهم من  
سكان القرية ... إنه يقوم لهم بوظيفة المراحيض العمومية !

انطلق التلاميذ إذن في كل مكان يفرغون ما تحمله جيوبهم  
في بطونهم ، وما تحمله بطونهم في الحقول القريبة ... ولكنهم  
فوجئوا بجرس المدرسة يدق دقاً عنيفاً متواصلًا قبل اليماد المقرر  
للحصة الثالثة .

(\*) فصل من كتاب ( طفل في القرية ) يظهر في أول أبريل .

وانتظمو صغوفًا بعد إقليل ، ولم يسموا تلك النداءات  
المهودة التي يؤدون على أساسها بعض الحركات الرياضية الساذجة ،  
ولكنهم سمعوا ناظر المدرسة يلقى عليهم خبراً غريباً عجيباً لم يسموا  
به قبل الآن ... إنهم الآن ذاهبون إلى « دُوار العمدة » ،  
وسيسيروا في الطريق بنظام . وكان هذا يقتضيه أن يقطعوا  
شوارع القرية كلها تقريباً ، فدوار العمدة في أقصى الطرف الآخر  
من القرية ، والناظر يحذرهم من الإخلال بالنظام في أثناء السير ،  
والالتفات إلى اليسار أو إلى اليمين ، وبخاصة عند مرورهم « بسوقة  
القرية » ، حيث يعرض القصب والبلح والتفاح البلدي الفج !  
يذهبون إلى دوار العمدة ؟ ولماذا ؟ وهم لم يدخلوا هذا  
الدوار قط ، وإن سمعوا من آبائهم وأهلهم أنهم يذهبون في بعض  
الأحيان ، عندما يستدعيهم أحد الخفراء ، أو لأداء شهادة ،  
أو للشكوى من بعض الفلاحين ... أما هم ... هم تلاميذ المدرسة ،  
فألم وكل هذه الأشياء ؟

وكان هو جريئاً يعض الشيء على ناظر المدرسة ومدرسيها ،  
فاستطاع أن يسأل : ولماذا تذهب إلى دوار العمدة ؟  
سأل ، وبإلته لم يسأل ! لقد كان الجواب كارثة عظمى  
لم تحظر له ولا لزملائه على بال .. إن « الحكيم » هناك — أي  
الطيب — وهو يطلبهم جميعاً !

الحكيم ؟ يا للدهاية ! اليوم دنت آخرتهم ولاشك ، فهدم  
بالحكيم هذا لا يزور القرية إلا في يوم أغبر أ كدر ، يوم يقع  
في البلد قتيل ، ثم تحضر « النياية » ، ويحضر معها الحكيم  
لتشرح الجثة !

والنياية والحكيم هذان هما الشيطان المائلان الخيفان في القرية  
كلها . أما في أذهان الأطفال ، فهما « هيولى » لا يتصورون  
لها شكلاً ولا حجماً ، فخيالهم الصغير يستطيع أن ينطلق في  
تصورها كيف شاء ، ولعله لن يميزها بحدود مما يميز الأشخاص  
والأشياء .

ثم ها هو ذا الحكيم يطلبهم ، يطلبهم هم بالذات ، فإذا  
يكون الأمر ؟

إنهم لا يعرفون لماذا يطلبهم مطلقاً ؟ ولكنهم واتقون

ينجو إلا بمعجزة من معجزات القدر ، أو ببركة « نعمة » لولى  
من كبار الأولياء ؟ !  
وارتجفت مفاصلهم جميعاً وهم يسمعون الخبر الفاجع ،  
واصغرت وجوههم ، وعلا صوت بعضهم بالنحيب والمويل !

\*\*\*

ووصلوا إلى الدوار ، ولا يعلم إلا الله كيف وصلوا . ووقفوا  
صفاً طويلاً . أوله في داخل الدوار - أى في منطقة الخطر -  
وآخره في الشارع أمامه ... وعن اليمين وعن الشمال وقف الحفراء  
بينادقهم « وليدم » الطويلة ( جمع لبدء ) ؛ ووقف أحد  
المدرسين في أول الصف وأحدم في آخره . أما الناظر فقد سبقهم  
إلى الحكيم ليطمئنهم قليلاً ، ويظهر أمامهم بمظهر الشجاعة المطلوب !  
وكان ترتيب الصف حسب الطول ، فتقدم كبار التلاميذ  
وتبهم الصغار أو القصار . وفي هذه اللحظة أصبح القصر نعمة  
كبرى من نعم الله !

فأما الذين تقدموا فلا يعلم عنهم أحد شيئاً إلا الله ،  
وأما التخلفون فهم في تطلع مستمر وقلق دائم ، ينظرون  
ماذا سيفعل بأول الداخلين ، ليمرفوا نوع الصير الذي  
ينتظرهم بعد حين !

وكانت مفاجأة حيناً بدأ بعض الكبار يخرجون ، بينما بقية  
الصغار لا يزالون في الصف الطويل ... وانبثت الصيحات  
والأسئلة التي لم يستطع كبجها الحفراء ولا المدرسون :

- دخلتم للحكيم ؟
- نعم دخلنا !
- وماذا صنع بكم ؟
- لا شيء ! غزنا في إصبعنا بالدبوس وشفط الدم !
- الدم ! ولكن رؤيتهم لهم أحياء أمحاء مطمئنة على كل حال !
- وماذا هذا في أيديكم ؟
- حق من الصفيح نأتى فيه بعينة براز وزجاجة صغيرة  
نأتى فيها بعينة بول !
- عينة براز وعينة بول ؟ ولماذا ؟
- لا ندرى ! هكذا طلب منا الحكيم !

في قرارة نفوسهم أنه لن يكون خيراً ، وأنهم لن يخرجوا من  
الدوار - إذا خرجوا - وهم سالمون مثلما دخلوا بحال من  
الأحوال !

وما وظيفة الحكيم ؟

أليست وظيفته أن يشرح جثث الموتى ، وأن ييقظ بطون  
المصابين ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم لمجرد الإيذاء ، أو لكي  
يفحصها ويلتذ بفحصها ؟ أو أن يسقى بعض المرضى « الفنجان »  
- أى السم - ليموتوا ، حتى لا يتم في علاجهم ، أو تلبية  
لرغبة العمدة الذي يرشوه للتخلص من خصومه الذين يصابون  
في الحوادث !

فأهم وهذا الحكيم ؟

إنهم ليسوا قتل يشرحهم ، وليسوا مصابين بقطع أوصالهم ،  
أو يسقيهم « الفنجان » ... ولكن ، أو يستدعيهم إلا لأمر ما ؟  
أخف شيء يصنعه بهم هو « التجريح » ... ( وهو الاصطلاح  
الذي يطلقونه على عملية التنظيم ) ، تلك العملية المرعبة التي يندب  
لها بعض معاوى الصحة ، وبعض المرضين في الحين بعد الحين ،  
فتروّع القرية رويماً ... وما إن يعلن أن في البيلد « الحكيم  
الصغير » ( تمييزاً له من « الحكيم الكبير » الذي يطلبهم الآن  
والذي يرافق النيابة دائماً ولا يحضر منفرداً ) ما إن يعلن هذا  
في القرية حتى ترتج وترتجف ، فتخرج الأمهات إلى الشوارع  
مولولات مذعورات يلتظن أطفالهن من كل مكان في ذعر  
ومجأة ، ثم يفلتن على أنفسهن الأبواب ، وبصعدن إلى السطوح  
أبتعداً للقفز عليها من بيت إلى بيت ، فكثيراً ما يدق هؤلاء  
الشياطين الأبواب ، ويكسرونها بمساعدة الحفراء ، ويهجمون  
على من فيها « للتجريح » !

فأما من تستطيع القفز إلى ازوت المجاورة ، فلن تقصر في  
سلوك طريق النجاة ، وأما من لا تستطيع ، فإنها تختبئ في  
صومعة الللال ، أو في خم الدجاج ، حيث لا يخطر على قلب  
« الحكيم » أنها هناك !

هذا هو الحكيم الذي يرفونه ... فما بالهم بالحكيم الكبير  
الذي لا يحضر إلا مع النيابة ، والذي لا يقع أحد في يده ، ثم

لقد انطلق المخرجون يرجون إخوانهم أن يمدوم بموهم ،  
وأن يتولوا عنهم ملء هذه الأحقاق !

وهنا تظهر الطبايع على حقيقتها . فالشدايد هي أفضل محك  
لها ! فأما ذوو الأصل الطيب والطبع النبيل من التلاميذ فقد  
تقدموا للماونة زملائهم بلا تردد . وأما قليلو الأصل وذوو الطبايع  
اللثيمة ، فبعضهم امتنع شفاء لحزازات قديمة ، وبعضهم تمنع  
لؤماً وانهازاً للفرصة !

ولكن هذا التعاون لم يسد الحاجة إلا إلى حدّ معين ، وبقى  
عدد من الإخوان الذين لا يجدون ما يفتقون ! ... وهنا تفتقت  
عبقرية أحدهم عن حيلة بارعة :

إن في سراحيض المساجد متسعاً للجميع !

أما كيف كان ذلك ! فلا بد من بيان عن هذه المراحيض :  
كان في القرية نحو عشرة مساجد مبنية كلها على الطراز  
العتيق . وكانت دورات المياه بها عجبية . فهي مؤلفة من  
« منطس » هو حوض مبنى من الطوب ومطلّى بالسمنت من  
الداخل والخارج ، ويملؤه عامل خاص ، يمتح بالدلو من البئر ويصب  
فيه حتى يمتلئ . وفي الحائط الخارجي للمنطس ركبت صنابير  
تصل من البناء مباشرة إلى الماء بداخله . ومنها يتوضأ المصلون .  
ولكن المنطس لا يستخدم فقط للوضوء . إنما هو الحمام  
المختار لعدد كبير من الناس الذين يموزم الماء في بيوتهم للمنسل ،  
فيذهبون إليه في جنح الظلام قبيل الفجر ، حيث يتسورون  
حائطه ، ويرفعون غطاءه الخشبي ؛ ثم يغطسون ، فينقون أجسامهم  
من الأوسار المادية والعنوية ، ويدعونها هناك للتوضئين !

ويلحق بدورة المياه المراحيض ، وبنائها عجيب . فهي تقع  
في صف طويل ، يفصل بين كل اثنين منها حائط ؛ ولكنها من  
الداخل متصلة بقناة مكشوفة يجرى فيها الماء للجميع من منفذ  
في الحوائط الفاصلة بسمة القناة . وتتلأ هذه القناة بالماء من البئر  
كما يملأ المنطس . ومن هذا الماء الجاري التصل ، يتناول المصلون  
وغير المصلين للاستنجاء بأيديهم ، وهم داخل المراحيض ، والماء  
يجرى ويتصل بالجميع !

أما بناء المراحيض ذاتها فأجيب . فالرحاض يتكون من

— الحكيم نفسه طلب منكم هذا ؟

— لا ... الحكيم الكبير غزنا . والحكامه السنيرون

سلونا الحق والزجاجة وطلبوا منا العينة للحكيم !

\*\*\*

وتوارى الفزع قليلاً ليحل محله التساؤل المنحوب بالدهشة  
والاستغراب لهذا الطلب الغريب !

إن أحداً لم يطلب منهم مثل هذا الطلب من قبل . وماذا  
يصنع الحكيم بهذه العينات العجيبة ؟ إنهم إن فهموا غزم  
بالدبوس وشفط الدم ، فإنهم لا يفهمون طلب العينات . إن الفز  
والدم لازمتان طبيعيتان للحكيم ... ولكن هذا ! من بدرى ؟  
إنه الحكيم !

وعلى سهولة الطلب ورخصه فإنه بدا صعباً عزيزاً في كثير  
من الحالات ... لقد طلب إليهم جميعاً أن ينطلقوا إلى دورات  
المياه بمساجد القرية ، وأن يمودوا بعد نصف ساعة وممهم المطلوب .  
وليس كل تلميذ يستمد لتلبية هذا الطلب في مثل هذا  
الوقت ، ولا سيما أن « الفسحة » المدرسية كانت قد أفرغت  
ما في البطون ... لو كان هذا قبل الفسحة لكان كل شيء حاضراً  
وبخاصة إحدى العينتين التي لا تأتي هكذا عند اللزوم !

فأما الذين كان في أعماهم بقية فقد انطلقوا مطمئنين ،  
وأما الذين أحسوا أن أعماهم لا تستجيب لهم ، أو حاولوا  
ولم يفلحوا ، فقد علا وجههم الاسفرار ، وارتفعت دقات قلوبهم  
من الخوف ، وركبتهم الحيرة التي تركب المذعورين !

ماذا يصننون ؟ وكيف يمودون إلى الدوار ، أو كيف  
ينفيون عن الوعد الرسوم ؟

إن أقل ما يتصورونه إن هم عادوا فارغين أن يبقر الحكيم  
بطونهم ليتناول منها العينة المطلوبة أو أن يدخل في أجسامهم  
قنوات طويلة لسحب هذه العينة . وفي الأولى الموت أو خطر  
الموت ، وفي الثانية العار أمام إخوانهم وعند القرويين !

وهنا تفتتق الحيلة ، وتبدو قيمة التعاون !

إن التلاميذ لإخوة ، فتى تظهر قيمة هذه الأخوة إن  
لم تظهر الآن !؟

البيوت والخوانيت أن يتمتموا بالنظر الفذ والرائحة القوية أسبوعاً أو أسبوعين ... فتلك بيوت الله ، ولا يجوز أن يتأذى أحد من فضلات المصلين !

\*\*\*

قرب المواد المطلوبة في فتحات هذه المراحيض العجيبة ، هو الذي فتق الحيلة البارة التي نبتت في ذهن هذا التلميذ المبقرى ! وما إن طلع بها على إخوانه المهوفين ، حتى طلع عليهم الفرج بعد الضيق ... وماحى لإدقائق حتى كانت الأحقاق كلها مليئة ، فسلمها الحكاء في اطمئنان عميق ... وسمح للتلاميذ بإجازة بقية اليوم ، فعادوا إلى منازلهم غير مصدقين !

\*\*\*

وعلم فيما بعد أنها كانت بعثة طبية للقيام بإحصاء طبي عن حالات الانيميا والبلهارسيا والانكستوما والإسكارس . ولكنه لم يعلم كيف كانت النتائج التي دونتها البعثة في إحصاءاتها الرسمية الوثيقة !!!

سير قطب

### مدينة الأوقاف

تسهر وزارة الأوقاف بيع حوالي ١٨٧ ألف متر مربع صفقة واحدة من أرض مدينة الأوقاف الجديدة على شارع الخديوي اسماعيل بالدق بضمن أسامي جنيه وأربعائة مليم للمتر المربع ويدخل ضمن المساحة الشوارع الداخلية وبشرط أن يتحمل المشتري نفقات أعمال المجارى ورصف الشوارع الداخلية وكذلك الشوارع المحيطة بهذه الأرض وستعقد جلسة المزاد في إدارة المدينة بديوان الوزارة في الساعة العاشرة من صباح الإثنين ٨ أبريل سنة ١٩٤٦ . ويمكن الاطلاع على الحرائط والشروط بإدارة المدينة بالوزارة .

٣٨٧

« كتفين » يجلس فوقهما من يريد . وبينهما فجوة واسمة تضطر الجالس إلى أن يباعد ما بين رجله كي لا يسقط في الفتحة الكبيرة . في هذه الفتحة يتساقط ما يتساقط ، فيتراكم قريباً من الجالس . لأن خزانات المساجد معدودة ، والمدد الذي يتردد عليها ضخماً جداً — إذ ليس في المنازل مراحيض إلا نادراً — وجميع الرجال والأولاد الكبار يلجأون إلى المساجد والحقول . أما النساء والأطفال في سطوح المنازل متسع للجميع !

وتبقى هذه الحالة طوال السنة ، والرائحة التي لا تطاق تهبث من هذه المراحيض المكشوفة ، والمواد النازلة على سراي من الجالس لقضاء الحاجة ، والبموض يتبادل مواقفه تارة على هذه المواد المكشوفة ، وتارة على وجوه الجالسين ، فإذا خلت منهم المراحيض أخذ طريقه إلى المصلين وإلى البيوت المجاورة جيئة وذهاباً حيناً يريد !

وفي موعد خاص يستقدم « الشَّرْبَابِيَّة » أى الذين يكسحون المجارى . يستقدمون من المدينة القريبة بمقاوله خاصة لنزع خزانات مسجد أو عدة مساجد ، ولهذا النزع طريقة عجيبه . إن العربات الخاصة لم تكن تستخدم هناك على النحو المتبع في بعض المدن الحالية من المجارى . وما الداعي لهذه العربات ؟ وهناك طريقة طبيعية مقتبسة من البيئة الزراعية ؟!

ألا تستخدم القنوات في الحقول لنقل الماء من مكان إلى مكان ؟ فلماذا لا تستخدم كذلك في نقل هذه المواد من المجارى إلى الحقول ؟!

ألا إنها لتستخدم ! فإها هو إلا أن تحفر قناة مكشوفة من المسجد الذي يراد كسح خزاناته إلى الحقول خارج القرية ، وتجر هذه القناة بالبيوت والخوانيت في وسط الشارع ، ثم يربط جردل بجبل ويملق هذا بيكرة ، ويتف عاملان يتناوبان فوق الخزان ، يملآن هذا الجردل من الخزان ويصبانه في أصل القناة وبعد هنيهة يجري التيار حاملاً كل شيء إلى الحقول المحظوظة بهذا السماد الطبيعي الثمين !

هذا ويتفق أن تكون عدة مساجد متفرقة في القرية في حاجة إلى التطهير ، فتوفيراً للقنوات المتعددة ، توصل قناة بقناة ، وإذا بالقرية كلها شبكة واحدة من القنوات المتصلة ... وعلى سكان